قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه، ولم يرجع الأب بعد ذلك.. ولكن من المحقق أنه لم يمت وإن كانت أخباره قد انقطعت.. نعم أذكر هذا».

فقال المدير: «أواثق أنت من ذلك»؟

قال سعيد: «كل الثقة.. ولكن أين هو؟ لا يدرى أحد».

قال المدير: «ولكنه إذا كان لا يزال حيا — لابد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين.. انتظر.. ولد.. ولد.. نعم.. سنة ١٨٥٠، فهو الآن فى السادسة والثمانين؟ يألله! أتظن؟ أنى لا أكاد أصدق، لقد كان معروفا عنه أنه مسرف فى إنفاق حياته.. لا يبالى أعاش أم مات.. فكيف يمكن..»؟

فقال سعيد: «مثل هؤلاء الذين لا يبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمَّرون».

فقال المدير وهو شارد: «ربما.. ربما.. ولكن ٨٦ سنة.. هذا عمر.. هذا..».

فنهض سعيد ومد يده إلى المدير، وقال: «سأعنى بالبحث.. وإذا وفقت إلى شىء فسأخبرك».

فمد المدير إليه يده، وهو يقول كالمحدث نفسه: «٨٦ سنة.. أما لو كان حيا؟ ولكن كيف يمكن؟ كيف يمكن»؟

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع فى خلالهما كلمة من سعيد، ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصى — عبثا — فأقصر يائسا وصرف نفسه أسفا عن عبد القادر التميمى. وكان جميل بك — أو إذا شئت اسمه كاملا، جميل بك أحمد القناوى — رجلا مخلصا عطوفا رقيق القلب، وقد شق عليه جدا أن يحدث فى القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحوا من أربعين سنة، فتنساه الدنيا التى يسرها ويملؤها حبورا وجذلا، ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغى أن يعرف: «أهو حى أم تراه ميت»؟ وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة إنسانية لأنه لم يشك فى أن اختفاء هذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق آخذ بالكاتب، وهو مع ذلك الذى يرفه بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويهذبها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والسرور كما تفعل الشمس، ولم يسعه الا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور فى عالم لا يكاد يختفى فيه شىء فى هذا العصر، ورجح عنده لهذا أن الرجل لابد أن يكون قد لقى حتفه فى أول مراحل هجرته — إذا صح أن تسمى هجرة — ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته. وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن